توحيد المانيا وتوحيد العرب

الحياة - ٢٣/٢/٩٠

غسان سلامة *

■ لي صديق مهووس بالوحدة العربية، يرى فيها الحل العجائبي لأمراض السياسة العربية المزمنة، وهو اليوم يقظ يهتم بعملية اعادة توحيد المانيا وفي ذهنه ما يغذي حلمه: فان كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت «بتجزئة الوطن العربي» كما يقول، فالحرب العالمية الثانية انتهت بتقسيم المانيا، وان كانت اللغة والثقافة العربيتان المدماك الأساسي لجنوح العرب الوحدوي، فهما كذلك في المانيا، وبالتالي فان كان النظام الدولي، بجباريه وبدوله الاوروبية المختلفة على عتبة القبول باعادة توحيد المانيا، فقبوله بتوحيد «الأمة العربية»، أمر أسهل منالاً.

وهو يضيف: ان القوى الخارجية هي التي فرضت التجزئة على العرب والتقسيم على الالمان، ولولاها لكان توحد هؤلاء واولئك في كيان سياسي واحد. وان كانت القوى الخارجية على قاب قوسين من رعاية اعادة توحد المانيا، فالأحرى بها ان تقبل بتوحد العرب. فالعرب، على عكس الألمان، لم يخوضوا حربين عالميتين ضد جيرانهم، ولا هم توسعوا على حساب غيرهم، ولم يفعلوا باليهود والاقليات ما فعلته النازية، كما انه ليس لديهم القدرات الاقتصادية والتقنية التي قد تجعل من المانيا ثقلاً كبيراً على كتفي اوروبا والعالم. لذا فمن يقبل بالكثير، يسهل عليه القبول بالقليل، ومن يرحب بتوحد المانيا لن يقف حجر عثرة امام توحد العرب.

وكنت اقول لذاك الصديق: ليت الامور هي فعلاً كما تصورها، في فرضياتك والنتائج، ولكنه كان يعطي جواباً لكل تحفظ حتى سمعت غيره ينظر من بعيد «لحقبة توحد الامم» ومنها العربية، وهي حقبة ستفتتحها برأيه المانيا، وتليها كوريا، وتتبعها امم كثيرة اخرى، بصورة سلمية. فالعصر يشهد أفول الامبراطوريات الباقية، وان كانت امم ادمجت قسراً في الاتحاد السوفياتي امست تتفلت منه، فالامم المجزأة ستجد في القريب وحدتها، هل هذا عصر الامم الموحدة بعد طول عذاب، والمستقلة بعد طول هيمنة؟

لكن الحقيقة ليست بهذه البساطة لأسباب كثيرة اولها بالفعل مقولة «تجزئة الوطن العربي» التي نسمعها. فالذي تجزأ فعلاً غداة الحرب العالمية الاولى لم يكن وطناً موحداً على الاطلاق، بل كان امبراطورية متعددة القوميات، هي السلطنة العثمانية. هذه السلطنة شهدت تفتتاً تدريجياً فانفصلت عنها اليونان، والهرزق، وخسرت اراضي كثيرة لصالح روسيا القيصرية ثم استقلت مقاطعات عربية هنا، منها مصر بقيادة محمد علي، والجزيرة العربية بقيادة الوهابيين والسعوديين، ناهيك عن استقلال تونس الفعلي وعن احتلال فرنسا للجزائر. فما جاءت الحرب العالمية الاولى حتى اختارت اسطنبول جانب المانيا، ودخلت معها الحرب، وخسرتها معها، وخسرت بالتالي المقاطعات المتبقية من الامبراطورية، التي اعاد ترتيبها الحلفاء المنتصرون وفقاً لمشيئتهم من اتفاق «سايكس - بيكو، لمعاهدة العقير، مروراً بوعد بلفور. وهذا التطور التاريخي مختلف جوهرياً عما حصل للرايخ الثالث غداة الحرب العالمية الثانية حيث تمت عودة مقاطعات محتلة لاصحابها بينما تقسم بنيان دولة - وطن، مكتملة المعالم، هي الدولة الالمانية.

أضف الى ذلك ان هذه الدولة نفسها قصيرة العمر فعلاً. فان نظرنا في التاريخ الألماني، لوجدنا ان المرحلة التي توحدت فيها الأمة الالمانية فعلاً هي مرحلة قصيرة نسبياً تمتد بين سنتي ١٨٧٠ و١٩٤٥، بينما عاش الألمان قبل ذلك التاريخ وبعده، موزعين على اكثر من دولة واحدة. لذلك يتساءل البعض ان لم تكن القاعدة التاريخية هي توزع الالمان على دول متعددة والاستثناء هو توحدهم في دولة موحدة. فما هي ثلاثة ارباع قرن من الوحدة الالمانية مقابل قرون طويلة من التجزئة السياسية الفعلية؟

ثم ان القوى العظمى تلعب دوراً اساسياً فعلاً في التجزئة والتقسيم. والحق يقال ان الحلفاء هم، بانتشارهم العسكري على الارض وبارادتهم السياسية، الذي قرروا قسمة المانيا الى دولتين، وبالتالي انتماء كل من الدولتين الى معسكر استراتيجي مختلف. كما ان الحدود الموضوعة فيما كان مقاطعات عثمانية سنة ١٩١٨ لعبت الدول العظمى آنذاك في تحديدها دوراً اساسياً

> **بدلاً من التأرجح المستمر بين الحلم ببسمارك عربي يأتي ويوحد بالسيف، وبين دعوات حذرة للتضامن بين الكيانات العربية، فالأفضل القبول بالكيانات كما هي، والعمل انطلاقاً منها للتوصل في أقل الأقل لما توصلت اليه المجموعة الاوروبية في اتفاقها على سنة ١٩٩٢.**

ويعتقد بعض الالمان فعلاً ان القوى العظمى هي التي حمت لاحقاً تقسيم المانيا بعد تنفيذه على الأرض. القوى العظمى مسؤولة طبعاً، ولكن هل هي تتحمل المسؤولية الاساسية فعلاً في ما يخص استمرار العرب على التنافر والشقاق؟ يقيني ان العقبة الأساسية امام التوحد العربي ليست خارجية بل هي داخل البقعة العربية نفسها، ونلمس وجودها في نشوء النخب المحلية الانعزالية ذات المصالح النابعة من وجود الكيانات العربية كما هي، ونلمسها ايضاً في استئثار بعض الأنظمة التسلطية بالفكرة العروبية بحيث اصبحت الوحدة العربية مرادفة للانقلابات العسكرية والديماغوجية الاعلامية والقهر الامني، ناهيك طبعاً عن السياسات الانعزالية المختبئة وراء الايديولوجيا العروبية المعلنة.

لذلك نقول بصراحة، لصديقنا ولغيره، ان المثال الالماني لا ينسحب على احوالنا العربية، بل لا علاقة لنا به على الاطلاق وبدلاً من التأرجح المستمر بين الحلم بيسمارك عربي يأتي ويوحد بالسيف، وبين دعوات حذرة للتضامن والتآلف بين الكيانات العربية كما اوجدتها الظروف، فالأفضل القبول بالكيانات كما هي، والعمل انطلاقاً منها للتوصل في أقل الأقل لما توصلت اليه المجموعة الاوروبية في اتفاقها على سنة ١٩٩٢، لا سيما في مجال حرية الانتقال للأفراد والبضائع والرساميل، وحرية العمل دون قيد في اي من بلدان المجموعة، وتشجيع التجارة الداخلية الى اقصى الحدود.

ان استمرار الحلم بتوحد على الطريقة البسمارکية السابقة، او على الطريقة السلمية الحاصلة الآن، يمنع العرب الحريصين على قدراتهم عن البحث في الوسائل العملية للتفاهم والتضامن. لذلك فبدلاً من استمرار القوميين العرب باحتقار مؤسسات العمل العربي المشترك (لأنها تكرس وجود الكيانات)، وبدلاً من حلمهم الدائم بوحدة عربية شاملة كاملة (لا وجود فعلياً لعناصرها التأسيسية)، فالأحرى بهم البحث عن الطرق الواقعية والعملية لينتقل المواطن العربي من بلد الى آخر بحرية تامة، ولتتوقف محاولات بعض الكيانات القائمة الهيمنة على جاراتها باسم الوحدة العربية، ولفضح استعمال الفكرة العربية لغايات تسلطية رخيصة في جل البلدان التي جعلت من العروبة نوعاً من «دين الدولة الرسمي».

تلك هي الطريقة الصحيحة. بمعنى آخر ليس هناك من زعيم عربي حالي او سابق او آت سيكون بسماركاً. وليس هناك من بروسيا فعالة لا في ارض الكنانة، ولا في ارض الرافدين ولا على ضفاف بردى ولا طبعاً في طرابلس الغرب. ثم ان احوال اوروبا ليست أحوالنا، والالمان ليسوا كالعرب، وقوميتهم حقيقة واقعة بينما قوميتنا العربية نوع من الحلم المؤدلج، نتغنى به ولا نعمل له، نرتاح لوجوده ولا نعرف وسائل تحقيقه.

ويقيني في النهاية ان الدول العظمى التي نتهمها بالف تهمة وتهمة ليست مسؤولة عن عدم انتقال الكتب والمجلات والافكار من بلد عربي الى آخر. ويقيني ان لا واشنطن ولا موسكو مسؤولتان ان لم يتمكن قارئ عربي واحد من الاطلاع على هذه الجريدة. فالمسؤولية تقع آنذاك اما على جهاز التوزيع فيها، او على الارجح على رقيب عربي أمل بنقله الفوري الى التقاعد وبالغاء المنصب من اساسه. وان لم يقرأ مواطن عربي واحد هذه الأسطر من اساسها، فليس ذلك بسبب تآمر الاميركان والروس لمنع العرب من التواصل، بل لأن العرب انفسهم قد انتجوا سلطات سياسية تمنع تواصلهم... وتتهم الدول العظمى بذلك.

---

* كاتب وباحث سياسي لبناني مقيم في باريس.